

فقيه الشام الكبير العلامة الشيخ أحمد الزرقا (1285 – 1357 هـ)

بقلم الأستاذ أحمد عز الدين ويس - حلب

عرفت مدينة حلب الشهباء في القرن الرابع عشر الهجري، نهضة علمية مباركة؛ إذ كانت دوحة يتفياً ظلها طلاب العلم، وشداة المعرفة، والثقافة الإسلامية فمساجدها عامرة بالدروس، وبقايا مدارسها لا تبخل على طالب يحمل في نفسه استعداداً لطلب العلم، وساهم في هذه النهضة الميمونة؛ تنظيم المدرسة الخسروية التي ضمت بين جنباتها كوكبة من خيرة علماء ذلك العصر.



ومن بين هؤلاء العلماء الفطاحل برز العلامة الفقيه الشيخ أحمد الزرقا، واحتل المكانة الأولى في الفقه وعلومه، ولا غرو فهو ابن فقيه الشهباء الشيخ محمد الزرقا رحمه الله، رضع الفقه من أبيه في صغره، وارتوى منه في شبابه؛ ففاض منه في كهولته وفي شيخوخته.

ومن توفيق الله تعالى له أن رزقه بمن ورث منه ما ورث هو من أبيه فكان من أنجاله الفقيه الشهير الشيخ مصطفى الزرقا الذي ودعناه صيف هذا العام 1420 هـ. (رحمة الله عليهم أجمعين).

ومن التوفيق للشيخ مصطفى أيضاً أن يرزق بولد يحمل عنه هذا الإرث العلمي الكبير، ألا وهو الأستاذ الدكتور محمد أنس الزرقا حفظه الله تعالى رئيس مركز أبحاث الاقتصاد الإسلامي في جدة، وقد أصاب أديب الشام الشيخ علي الطنطاوي (رحمه الله) عندما وصف هذا التوارث العلمي الفقهي في هذا الأسرة فقال: "هذه سلسلة الذهب".

الشيخ محمد الزرقا

قبل الحديث عن علامتنا الشيخ أحمد، لا بد من الحديث عن والده الشيخ محمد بن عثمان بن عبد القادر الزرقا، لما له من الأثر الكبير في تنشئة ولده، وقد كان الشيخ محمد (رحمه الله) طالع السعد في هذه الأسرة إذ رفض الاستمرار في عمله في التجارة، وأقبل على العلم بصدق وهمة حتى غدا شيخ الشهباء في الفقه الحنفي وعلومه.

ومن تكن العلياء هممة نفسه فكل الذي يلقاه فيها محب

وقد وصف المؤرخ الشيخ محمد راغب الطباخ مكانة الشيخ محمد الزرقا العلمية، فقال في كتابه "إعلام النبلاء": "الشيخ محمد فقيه الديار الحلبية، وعالم البلاد السورية، كان في المذهب النعماني عَيْلَمَه الزاخر، وبحره الرائق، وسراج الوهاج، سابق الأقران في حلبة الفضل، فكان السابق والمجلي، وكان غيره السابق والمصلي، مع فصاحة لسان تأخذ بمجاميع الألباب، وعذوبة بيان تُنسي المتيم الوهان حلاوة الرضاب". وأطنب في ترجمته (رحمه الله).

وما ذكره لا يعدو الإنصاف، فقد كان العلامة محمد الزرقا ممن بلغ درجة الإمامة في الفقه، ولذا طُلب إلى استانبول عاصمة الدولة العثمانية يومذاك للاستفادة من علمه وفقهه، فسافر إليها وبقي عدة شهور، غير أن نفسه كانت تتوق إلى بلده وأهله، فاعتذر عن وظائفه هناك، ثم عاد إلى دروسه وطلابه، فسُرُّ برجوعه أهل العلم، وأقبلوا على مجالسه العلمية بنهم شديد، ولم يكن يحضرها يوم ذاك إلا كبار طلاب العلم أو قل إن شئت لا يحضر هذه المجالس إلا العلماء.

قال العلامة المحقق المحدث الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله تعالى: "كان الشيخ محمد الزرقا فقيه النفس والبدن ممتعاً بمزايا علمية نادرة، وسجايًا خلقية رقيقة، فاق بها أقرانه، فكان شيوخ العلم يقصدون مجلسه ويحضرون حلقاته ودروسه ليقتبسوا من علمه وحصافته وذكائه الفريد وفطنته، فكان مجلسه دائماً عامراً بالعلماء والمستفيدين من علماء المذهب بل ومن غيرهم أيضاً لما يجدون في دروسه من حلّ المشكلات، وتذليل المعضلات، ونشر الفوائد التي قلَّ أن توجد في السطور المكتوبة، وكانت مجالسه لا يحضرها إلا الطبقة العليا الكبار من ذوي العلم".

توفي رحمه الله تعالى سنة 1343هـ عن خمس وثمانين سنة إذ هو من مواليد عام 1258هـ، وقد أسف الشيخ الطباخ لأن الشيخ محمد الزرقا لم يترك مؤلفاً لتعرف الأجيال اللاحقة فضله وعلمه وفقهه كما عرفها معاصروه.

وهذا أمر عرف عن العلماء المتأخرين، فكثير منهم لم يترك شيئاً من المؤلفات، وكانوا يكتبون بتخريج العلماء، فهذا محدث الشام الأكبر العلامة الشيخ محمد بدر الدين الحسني لم يترك إلا بعض الرسائل، وهذا عالم حلب الكبير المحدث المفسر الشيخ نجيب سراج الدين لم يترك شيئاً من المصنفات، ومن قبلهما العلامة المتفنن، ذو المعارف الواسعة الشيخ أحمد الترماني الشافعي رحمه الله عليهم أجمعين لم يشتهر له تأليف يذكر، وإن كان فضلهم وعلو كعبهم في العلوم والآداب أمراً لا يجادل به، ولا يمارى، ولكل عصر خصائصه ومزاياه.

الشيخ أحمد الزرقا

ولد الشيخ أحمد الزرقا في مدينة حلب الشهباء من بلاد الشام - موطن أسرته، وكانت هذه الولادة نحو سنة 1285هـ، وما إن شبَّ عن الطوق حتى دفع إلى الأساتذة والمربين فتعلم منهم ما يسر الله له تعلمه، وأضحى قادراً على الاستفادة من والده، فصحبه ولازمه ملازمة شديدة، وصبَّ والده من علمه الغزير في صدره الفسيح، وأتعب الشيخ أحمد نفسه في الطلب، وبذل جهده في التحصيل، فقد أدرك أن العلم لا يُستطاع براحة الجسد، فكان لا ينام من الليل إلا قليلاً بحثاً ومطالعةً ومراجعةً وتحقيقاً، وكان يطالع نحواً من عشرين كتاباً علمياً فقهياً على الكتاب الذي كان يلتقاه عن والده، امتدت صحبته لوالده قُرابة ثلث قرن، وقرأ عليه أمهات كتب الفقه الحنفي.

بعض الكتب التي قرأها على والده

1 - (ردُّ المختار على الدرِّ المختار) المشهور بحاشية ابن عابدين قال الشيخ عبد الفتاح أبو غدة: " وهذا الكتاب هو أجمع كتاب في الفقه الحنفي من كتب الفتوى والترجيح في خمسة مجلدات ضخام كبار جداً (دون التكملة) ويعد لدى علماء المذهب: (منخل المذهب) فيما عليه الفتوى، ولا يكاد يعول على فتوى في الفقه الحنفي دون الرجوع إلى هذا الكتاب، فقرأه على والده كاملاً من أوله إلى آخره، ودرسه دراسة تحقيق، وتدقيق، ومناقشة، وترجيح أكثر من مرتين خلال عشرين عاماً مع قراءته عليه في التفسير والحديث، والأصول أيضاً".

ولم يكن الشيخ أحمد الزرقا يكتفي بقراءة الكتاب وفهمه، وحفظ مسائله، وإنما كان يرجع إلى الكتب التي نقل عنها المحقق الشيخ ابن عابدين في حاشيته الشهيرة، وكان يجده واهماً في بعض النقول كما أخبر طلابه بهذا عن نفسه فيما ذكره الشيخ محمد الحامد رحمه الله تعالى.

2 - ومما قرأه على والده أيضاً في الفقه الحنفي الكتاب الاستدلالي النافع العظيم: (تبيين الحقائق على كنز الدقائق) للإمام الفقيه الضليح البار فخر الدين علي بن عثمان الزيلعي.

3 - ومما قرأه على والده أيضاً: الكتاب الذي تطابق اسمه ومسمّاه: (بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع) لإمام عصره، وفقه دهره العلامة الكاساني ثم الحلبي، وهو الكتاب الذي تميز عن سائر كتب فقه المذهب الحنفي بحسن التنظيم والترتيب مع الاستدلال والتعليل، وسلاسة العبارة، وأدب النقاش، واستيفاء الدليل من المنقول والمعقول. وغير ذلك من الكتب النافعة التي كونت شخصيته العلمية والأدبية.

نهوضه بالتعليم

لما جاوز الشيخ محمد الزرقا الخامسة والسبعين من العمر، وأدركه تعب الشيخوخة، أسند وظائفه إلى ابنه الشيخ أحمد - وقد رأى فيه الأهلية لذلك - فحلّ مكان أبيه في الجامع الكبير (الأموي) وفي المدرسة الشعبانية، وفي جامع آل الأميري (جامع الخير).

وفي مطلع العشرينيات من هذا القرن الميلادي، أنشأت مديرية الأوقاف الإسلامية بحلب، أول مدرسة شرعية نظامية في بناء مدرسة وقفية كبرى هي المدرسة الخسروية، التي خرجت أجيالاً تلو أجيال من طلبة العلم الذين غدوا بعد ذلك من كبار علماء البلاد السورية فعين الشيخ فيها أستاذاً لتدريس الفقه الحنفي في صفوفها العالية.



صفته وسجاياه

وأعود للحديث عن الشيخ الفقيه أحمد الزرقا رحمه الله تعالى، كان الشيخ وسيماً جميلاً، طويل القامة، لبّاساً بحيث ما يدانيه في هذا الجانب أحد، ذكر عارفوه أنهم لم يروا أحسن مظهراً منه رحمه الله، وكان ذا

هيبة عظيمة، وشيخوخة نيرة كما قال الشيخ محمد الحامد وأضاف "ولكنك إذا خالطته، لمست فيه نفساً طيبة".

أما فضيلة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله تعالى فقد أطل في وصفه وذكر سجاياه ومما قاله: "كان ... جميل الطلعة، منور الشيبة، وقوراً في مشيته، ومجلسه، وحديثه، لا تشبع العين منه رؤية ونظراً يتحلّى بإباءٍ وشممٍ ورجولة كاملة، وخصافةٍ وافرة إذا دعت الحاجة إلى الوقوف في وجه باطل أو مبطل، كان موقفه أثبت من الجبل الراسي في نصره الحق، ودفع مُعاديهِ". وأضاف الأستاذ الشيخ محمد زين العابدين الجذبة رحمه الله فقال: "كان رحمه الله تعالى يجيب الملهوف ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، حتى عُرف بهذا وقصد من أجله".

مكاتبه العلمية

يقول العلامة الورع الشيخ محمد الحامد رحمه الله تعالى: "الأستاذ الشيخ أحمد الزرقا الفقيه الجليل الذي لم أجلس إلى أفقه منه، حتى المشايخ الذين تلقيت عنهم في مصر من بعد، بلل الله ثراه، وأغدق عليه شأيب رحمته، كان يتفجر علماً، ويتفتح تحقيقاً، ويجري معرفة كالوادي إذا سال، ولكأن الفقه كان أمامه يأخذ منه ما يشاء، ويترك ما يشاء".



وعن مقامه العلمي قال أستاذنا الفاضل الشيخ محمد زين العابدين رحمه الله تعالى: "كان الشيخ أحمد فقيهاً متضلعا من الفقه على مذهب السادة الحنفية، قلّ نظيره بين العلماء اطلعاً ومعرفة، ولم يكن ناقلاً فحسب بل كان ذا رأي وبصيرة عن أهلية لا عن دعوى، وكان يضم إلى الفقه علوماً شتى، وخاصة الأدب شعراً ونثراً، يحفظ من القصائد، والمقطوعات الشعرية، والنثرية ما لم نجده عند غيره".

وعن الجانب الأدبي في شخصيته يقول العلامة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمة الله عليه: "كان الشيخ ولعاً بالأدب القديم، متعمقاً في اللغة العربية، وآدابها، كثير المطالعة في كتبها من المصادر الأولى ذوّاقة للشعر الأصيل، راوية له، حفاظاً للأخبار، ولم يكن يقرض الشعر، ولا عرف عنه أنه مارس نظمه".

مع الشيخ في مجالسه ودروسه

ذكر تلاميذ الشيخ أنّ علامتنا رحمه الله كان مع شكيمته القوية وهيبته البارزة "لين الجانب لطلبة العلم بخاصة، والناس بعامة بعيداً عن التكلف، محباً للبساطة، سخيّاً سمحاً، حافظاً للصدقات وحقوقها، وكانت مجالسه: تعلم الفقه أولاً، والأدب ثانياً: أدب الخطاب، وأدب النقاش، وأدب المجالس الخاصة والعامة، وكانت تدور فيها الفوائد العلمية من كل جانب، والنكت المفيدة اللطيفة يمزج تقاريره العلمية بمرح لطيف، ومداعبات حلوة، يريح بها طلابه من صعوبة الفقه، فتتنشط النفوس، وتشحذ الأذهان ثم يعود إلى الفقه الذي كان روحه وريحانه. وكان الشيخ في دروسه قلماً يجنح إلى جانب الوعظ والتخويف، فإنه كان يرى الفقه في الدين مقدّماً على ما سواه من الوعظ والتذكير، وهذه مسألة قابلة للنظر وتحتاج إلى إيضاح وتفصيل، ولها موضعها المناسب من البيان في غير هذه المقالة.

وكان الشيخ محباً لطلابه، يحدب عليهم، ويرعاهم، ويكرمهم ومن لطائفه مع طلابه ما حدثني به أستاذنا الشيخ محمد زين العابدين الجذبة رحمه الله قال: دعانا الشيخ - معشر طلابه - ذات يوم إلى بستان للنزهة فوصل الطلاب قبل الشيخ، الذي جاء في عربة حنطور، تحمل أطعمة شهية، وكان في هذا الطعام خروف محشي مع جميع لواحقه، وفرح بذلك الطلاب، وأدخل الشيخ عليهم من السرور في هذه النزهة ما لا يوصف.

موقفه من العلماء السابقين:

3 ومما ينبغي أن يذكر عن مجالسه العلمية موقفه من العلماء السابقين، قال الشيخ محمد الحامد رحمه الله عن هذا الأمر: "ولم يكن من أهل الشطح والكبر الذين يتكبرون فضل الفضلاء السابقين، بل كان يتهم نفسه ويقول: "استرحنا من حيث تعب الكرام" مع أنه كان في تلقيه عن والده الجليل الأستاذ الشيخ محمد الزرقا رحمه الله تعالى تمر به سنون لا ينام من الليل إلا قليلاً ويطالع نحواً من عشرين كتاباً".

4 وقال أيضاً: "وأشهد أنه كان وقافاً عند حدود الله في بياناته العلمية، فإن عرض له إشكال طلب إلينا أن نكتبه له، ثم يضعه في ثنايا عمامته ويأتينا في الغد بالقول الفصل وكان يقول: "العلم أمانة" وهذا الأستاذ الكبير أحد الذين تأثرت به من الناحية العلمية.

هذا إلى تأديبه لنا معشر طلابه وأخذه إيانا باحترام الأئمة والعلماء حتى من غير الحنفية، ولا أزال أذكر قوله في حلقة الدرس: "إني أتصور الإمام الشافعي رحمه الله تعالى جبلاً من العلم" - [١ هـ] .

موقف من مواقف الشيخ

لما اضطر الشيخ إلى بيع مكتبته النفيسة التي كانت تضم نحو ألف مخطوط جاءته عروض من جهات أوروبية، وكان سماسرتهم منتشرين في العالم الإسلامي يقتنصون الفرص لنقل تراث الأمة - أو ما تبقى منه - إلى الدول الغربية، وعرضت عليه أسعار مغرية - وهو في حاجة يومذاك - فأبى رحمه الله تعالى قبول هذه العروض، وباع مكتبته كلها إلى المكتبة العامة في مدينة الإسكندرية في مصر، وكان السعر أدنى، و الفرق واضح، والعالم عندما يتخلى عن كتبه يعاني مرارة لا توصف وألاماً لا تمحوها يد الحدثان، فمجد التاجر في كيسه، ومجد العالم في كراريسه، ولكن:

وقد تُخرج الحاجاتُ يائماً مالِك
كرائمٍ من ربِّ بهنَّ ضنِينُ

مؤلفه الوحيد

لم يترك الشيخ من المؤلفات إلا كتاباً واحداً فقط هو: "شرح القواعد الفقهية" ومن المشهور أن العالم عندما يترك مؤلفاً واحداً أو مؤلفين فإنه يباليغ في تنقيحه وتهذيبه، لذا فإن عزو الخطأ إليه مزلة خطيرة، لا يقدم عليها عالم جسر إلا بعد التحري الدقيق، والتريث الطويل، لندرة الخطأ فيه، ودقة التحقيق عند مؤلفه، إذ لا ريب أنه استفرغ وسعه، وأنفق الكثير من عمره في ترتيبه وتهذيبه، ومحاولة إخراجِه سالماً كاملاً، وهذا الكلام ينطبق انطباقاً تاماً على كتاب الشيخ أحمد الزرقا " شرح القواعد الفقهية " لذا لا عجب أن اعتُبر أفضل شرح لها حتى الآن.

من تلامذته

إذا كان الشيخ لم يترك إلا كتاباً واحداً؛ فإنه ترك عشرات التلاميذ ومنهم من أصبح من أعلام العلماء، ولما كان حصرهم صعباً فإنّ الاكتفاء بذكر بعضهم يدل على صحة ما قلناه. من هؤلاء الطلاب العلماء "العلامة الأديب الأريب الشيخ مصطفى الزرقا فقيه العصر البارِع الضليع ذو المؤلفات البديعة، والآثار العلمية الرفيعة، وأشهر من أن يعرّف به" قال العلامة أبو غدة رحمه الله: "ولو لم ينبج الشيخ غير هذا الفقيه لكفاه فخراً وذكرًا".

ومنهم العلامة الدكتور معروف الدواليبي، والعلامة الشيخ محمد الحامد الحموي، والعلامة الفقيه الشيخ محمد السلقيني والد الأستاذ د. الشيخ إبراهيم السلقيني، والفقيه الشيخ محمد نجيب خياطة شيخ القراء في حلب، والشيخ الأستاذ محمد الحكيم مفتي حلب سابقاً، والشيخ الأديب الداعية بكري رجب، والشاعر الكبير والأديب المعروف عمر بهاء الدين الأميري، شاعر الإنسانية المؤمنة والأبوة الحانية، والشيخ عبد الله خير الله مفتي قضاء جبل سمعان، والشيخ محمد الملاح، والشيخ جمعة أبو زلام مفتي مدينة منبج، والشيخ محمد سعيد المسعود مفتي مدينة الباب، والشيخ الصالح أحمد الحصري عالم مدينة معرة النعمان وباني نهضتها العلمية، وأستاذنا الشيخ محمد زين العابدين الجذبة المدرس في الثانوية الشرعية، وفي المدرسة الشعبانية، والأستاذ الأديب الشيخ عيسى الخطيب العزازي ... وغيرهم كثير... رحمة الله عليهم أجمعين.

وكتبه أحمد عز الدين ويس في مجلة (منار الإسلام) أبو ظبي

1421 هـ / 2000 م - ثم أجرى بعض التعديل فيها

مصادر المقال :

- 1 - مقدمة العلامة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة لكتاب الشيخ أحمد الزرقا " شرح القواعد الفقهية ".
- 2 - كتاب " العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد " للأستاذ الشيخ عبد الحميد طهماز.
- 3 - لقاء مع الأستاذ الشيخ محمد زين العابدين الجذبة.
- 4 - كتاب " إعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء " للشيخ محمد راغب الطباخ.
- 5 - مقدمة الأستاذ مجد أحمد مكي لكتاب " الفتاوى " للشيخ مصطفى الزرقا.